21

آليات تشكُّل المكان في روايات صبيحة شبر

الحوار

ساره قحطان صالح

أ.د.فاتن عبد الجبار جواد.

الجامعة العراقية

كلية التربية للبنات / قسم اللغة العربية

آليات تشكُل المكان في روايات صبيحة شبر/ الحوار

يُعدّ الحوار من أهم آليات الأسلوب التعبيري في الرواية والقصة، لكونه الصفة العقلية التي لا يجوز فصلها عن الشخصية بوصفه من أهم وسائل الكاتب في رسم شخصياته[1]، فهو أحد أهم تقنيات تشكيل أي نص روائي لأنه "وسيلة يلجأ إليها الروائي لكسر الزخم الحاصل في فعل السرد، ويبعد الملل الذي يمكن أن يعتور المتلقي وهو يتلقى النص إذا ما تدفق سرداً أو وصفاً"[2].

حيث يحقق الحوار الحيوية والحركة للنص الروائي، لما لهُ من أثر في تشكيل المشهد العام ثم الخاص، فهو من آليات تشكيل المكان في النص الروائي ولهُ القدرة على كشف طبيعة الأمكنة والحركة التي تدب فيها، حيث يتوصل القارئ لطبيعة المكان وتجلياته من خلال الحوار الذي يكشف الحقائق ويوضح المقاصد والأفكار الظاهرة في ذلك المكان.

فللحوار أثر كبير في نقل الأحداث والظروف والوقائع باعتباره "الأداة القصصية المتمثلة في نقل الأقوال أو حكايتها"[3].

ولا تخفى أهمية عنصر الحوار في أكثر الأجناس الأدبية ونصوصها، فيكون الحوار في النصوص المسرحية هو العنصر المهيمن في الخطاب الجاري بين شخصياتها لأنه الوسيلة الأساسية للتخاطب في هذا الجنس الأدبي، وفي(الرواية) نجده لايقل أهمية عنه في المسرحية، أما في القصة القصيرة فيظهر الحوار كأحد وسائل السرد نظراً لقلة السعة الزمنية[4].

ويكون الحوار عبارة عن "عرض دراماتيكي عن طبيعته – التبادل شفاهي بين شخصين أو أكثر، وفي الحوار فإن كلام الشخصيات يُقدّم كما هو مفترض أن كيون بدون لاحقات استفهامية[5].

كما ويُعدّ الحوار في الأعمال الأدبية والروائية "جُملة من الكلمات تتبادلها الشخصيات بأسلوب مؤثر، خلافاً لمقاطع التحليل أو السرد أو الوصف"[6].

وهناك من اعتبر الحوار "خلاصة وافية شديدة التكثيف أو التركيز من الكلام بين أطراف الرواية والمشاركين فيها، أو بين الراوي وطرف آخر، فهو كلام منطوق لفظاً ومعنىً، متداول في الحياة اليومية، فيكون بمثابة إشارة أولية للتفاهم والتواصل بين المتحاورين"[7].

وللحوار أهمية في التعبير عن عناصر النص السردي بوساطة اللغة، فبخصوص تعبير الحوار عن عنصر المكان في العمل السردي يرى(يوري لوتمان) إن العلاقة الإنسانية خاضعة لتأثير المكان بها عن طريق اللغة والتي تعد أداة التعبير كالتعبير بوساطة اللغة الحوارية عن

التقاطعات المكانية: يمين ≠ يسار، عالي ≠ واطئ، واضح ≠ غامض.. فاللغة تجسد تلك الأمكنة وتصفها أثناء الحوار بين الشخصيات[8].

وهناك وظائف مهمة للحوار في إنتاج النص الأدبي، فالوظيفة الدلالية للحوار هي مساعدة القارئ في فهم الشخصية ودورها ومستواها الاجتماعي والفكري، كما ويُعدّ أداة الراوي في العرض المكثف للشخصية الواردة في العمل الأدبي.

كإضافة إلى إنه يتم التمييز من خلاله بين صوت الراوي والسارد للأحداث وصوت الشخصية المختارة، كما يكسر الرقابة التي أوجدها المؤلف في الخطاب وعدم جعلها بنمط أسلوبي واحد...[9]، وأهم وظيفة للحوار في النص السردي هي كشفه عن خلجات الشخصية في النص وطبائعها وعاداتها من خلال طريقة كلامها ومحاورتها[10].

وتكون الشخصيات أداة للحوار حيث تجعل منه الجملة من الكلمات تتبادلها الشخصيات ويكون ذلك بأسلوب مباشر خلافاً لمقاطع التحليل أو السرد أو الوصف[11].

بمعنى إن الحوار لا يتضمن التحليل أو السرد المسترسل أو الوصف النصي الذي يتعلق بوصف شيء ما أو غير ذلك، بل يتضمن ما يدور بين الشخصيات في أماكن مُتعددة.

ويكون الحوار على أنواع كما هو معروف في النصـوص والأعمال الأدبية والروائية وهو (الحوار الداخلي –المونولج، والحوار الخارجي –الديالوج):

أولاً: الحوار الداخلي(المونولوج)

إن الحوار الداخلي يتحول من التناوب بين شـخصـين إلى حوار فردي يعبر عن الحياة والحالة الباطنية للشخصية في وجودها به كان مجدد. ويتم توظيفه للتعبير عن شعور الشخصية وما تحس به وما تريد قوله إزاء مواقف معينة، ويعمل هذا النوع من الحوار على تكثيف الأحداث والزمان والمكان وما ينماز به إنه حوار صـامت ومكتوم في ذهن الشـخصـية[12]، ولاسـيما إن الحوار الداخلي بأنواعه: المونولوج ومناجاة النفس وتيار الوعي والفلاش باك والمونتاج يُشـكّل "معياراً نفسياً دقيقاً يستطيع أن يصف نفسيات الشخصيات بذكاء وصدق بالإضافة إلى تطوير هذه الشخصيات وتنمية الحدث"[13].

في نص من الرواية، تلجأ بطلة الرواية(سـميرة) إلى الحوار الداخلي وهي تناجي النفس وتواسـيها على صـدمتها بالرجل الذي أحبته(أحمد)، فقد جاء في هذا النص:"**مصـت حياتي يباباً قاحلة هل أهرب من المنزل، كما تفعل النساء الغاضبات في مثل هذا الموقف**"[14]. فيظهر من خلال الحوار الداخلي وصـف(سـميرة) للانكسـار الداخلي الذي أصـابها بعد أن ضـاع حلمها أن يكون(المنزل) المكان الآمن الذي يجمعها بالزوج الحبيب(أحمد) ويبنيان فيه حياتهما... لكن ما يبدو من خلال النص إن(المنزل) بات مكاناً مُعادياً جعل البطلة تفكر بالهروب منه تاركةً خلفها أحلامها والخلاص من جحيم الزوج المسبب لعدائية ذلك المكان(المنزل) في أول يومٍ جمعهما بين

جدرانه مما ترك في داخل نفس(سميرة) شعور الضيق والريبة من حياة مشتركة مع رجلٍ في منزلٍ(مكان) لا يحقق لها ما يجب أن يحقق من أمان واستقرار، وكل ذلك الشعور ظهر عبر الحوار الداخلي الاستفهامي بين الشخصية وذاتها محاولة الوصول إلى الحل الأقل خسارة.

وفي النص السردي:"**حيرتي كبيرة، انتظر علّ الحبيب الغائب يفكر بي أخيراً، وعسى أحمد يتذكر إن لهُ زوجة تركها في جحيم العراق تتطلع إلى أن تذهب إليه**"(15).

في هذا النص استطاع الحوار الداخلي أن يُشكّل ملمحاً أسلوبياً من خلال نقل الواقع الذي تعيشه هذهِ المرأة – بطلة الرواية – وانتكاسها بسبب عدم مبالاة الرجل – الزوج – الذي هاجر خارج العراق – المكان الذي لا يحقق لهُ الأمان – تاركها خلفه دون الاهتمام لأمر أخذها أو تواجدها معه في المكان الجديد – الذي يحاول الاستقرار فيه ويجده بلداً بديلاً لبلده الموصوف بـــ(الجحيم) حسب النص الوارد كإشارة إلى سوء الأوضاع فيه، وقد كان تصرف الزوج من شيم المغتربين الذين يعتادون على حياة الوحدة في المكان الجديد، وقد وظّف النص من خلال الحوار الداخلي الاستفهامي كيف إن المكان تتحدد صفته وطبيعته بحسب الشخصيات التي تشاركنا فيه.. حيث آثرت البطلة ترك البلاد(العراق) وقبول الغُربة من أجل البقاء والاستقرار مع زوجها. الذي تأمل أن يبعث ليطلب منها اللحاق به .. وفي هذا الحوار دلالة تحمل المرأة سلبيات المجتمع(المكان) وعواقبه عليها وعلى حياتها وأُسرتها.

أما النص السردي التالي يظهر أثر المكان على الشخصية المذكورة في الرواية من خلال الحوار الداخلي في النص:"**أخشى أن تنشأ ابنتي خائفة مترددة، البيئة غلابة، وأنا حلمت بعد أمور وجدت نفسي عاجزاً عن تنفيذها، في مدينتنا كل شيء عيب، إن لم يكن حراماً قد أتت الآيات لتحريمه**"(16).

فقد بدأ(أبو بسمة) المحاورة الذاتية مع نفسه باستخدام الفعل(أخشى) وهذا يشير إلى عدم الراحة اتجاه المكان المذكور في النص(مدينتنا)، فهو يخاف على ابنته(بسمة) التواقة للتعلم بأن تصبح شخصية مؤثرة ومعروفة، من المكان الذي تسكنه والذي يسير على العادات والتقاليد المقيّدة للمرأة – حتى ول كانت فتاة صغيرة– وحريتها في التعلم والخروج من منزلها لأنها فتاة فلجأ النص إلى أسلوب السبب والنتيجة من خلال الحوار الداخلي فكان تعبير(تنشأ ابنتي خائفة مترددة) هو النتيجة، وتعبير(البيئة غلابة) هو سبب لتلك النتيجة(الخوف) من خلال التوضيح الوارد في النص حول الأثر السلبي للمكان على(بسمة) بتعبير(في مدينتنا كل شيء عيب) الذي يظهر عجز الأب(أبو بسمة) اتجاه العادات والتقاليد المتعارف عليها في هذا المكان فكل ما لم يحرمه القرآن، جعلوه في كفة العيب وذلك ما فرضه المكان على ساكنيه مما جعله يتصف بعد الأُلفة التامة من وجهة نظر الشخصية الروائية(أبو بسمة) و(بسمة).

وفي نص سـردي آخر، يظهر الحوار الداخلي المسـتند على طبيعة المكان، واسـتمرار السارد(أبو بسمة) باستخدام (المونولوج) في التعبير عن أثر المكان على بنته وطموحها.. فيتضح ذلك من خلال النص "**أدركت إن بسمة كانت تواقه أن تكون مثل الكِبار، ولم تُدرك بعد أن وضع الفتيات الصـغيرات في بلادنا، أفضـل بكثير مما تعيشـه النسـاء من حرمان كبير من كل الحقوق**"[17]، فيحيل النص إلى الجدلية الخاضـعة للحوار الداخلي منطلقة من المكان الوارد في نص الرواية(بلادنا) والذي لا يدل فقط على المكان إنما يدل(البلد) على سياسة وتاريخ ومعتقدات ومجتمع...، ففي تعبير (أدركتْ إن بسـمة) صـراع يعطي دلالة القبول والرفض لما يريد تقديمه، فالنفس توجهها تارة إلى فعل معين، وتنقض هذا الفعل تارة أخرى، وكأن النص أراد أن يوضح ما تتعرض لهُ المرأة في هذا المكان(بلادنا) من عدم تقدير لدورها في العمل والتقدّم، وظهر ذلك من خلال الحوار الداخلي الذي بدأ بتأرجح في نفس(أبو بسـمة) بسـبب ما تلاقيه المرأة من ضـغوط فشـكّل تعبير (حرمان كبير من الحقوق) بؤرة الانطلاق نحو المرأة ومعاملتها بما تسـتحق وإنهاء انتزاع حقوقها في المجتمع المتحكم بزمام الأمور، وكانتْ عبارة(وضـع الفتيات الصـغيرات) و عبارة(ما تعيشـه النسـاء) من خلال الحوار الداخلي(المونولوج) وضّـح إن مرحلة الطفولة التي تعيشـها الفتاة في بلادنا – المكان المؤثر سـلباً على المرأة – أفضـل من النظر إليها كأمرأة كاملة وبدأ فرض العادات عليها، حتى في مسـألة علاقتها بالرجل داخل المجتمع الصـعب والتي تؤخذ على محمل الممنوع. ولا نجد حداً لهذا الحوار الداخلي لأنه يكون مع النفس ومن أجلها فكما نعلم إن أغلب النصـوص التي تلجأ للحوار الداخلي، يكون ذلك الحوار فيها جزءاً أسـاسـياً من النص وليس جانبياً.

تظهر صـورة الحوار الداخلي في النص الآتي:"**هذه السـيدة تُعاني الغربة وتعيش بعيداً عن ابنتها التي تقطن دولة عربية، هي مثلي تماماً، أحيا في العراق، وقلبي مع ابنتي وابني الساكنين في بلاد بعيدة**"[18].

تستخدم الشخصية الروائية في هذا النص الحوار الداخلي الذي يشرح ما تشعر به وفسّر أفكارها ومعاناتها والحنين إلى الدفْ الأُسري الذي تفتقده بسبب الانشطار المكاني والغُربة المؤدي إلى أن تكون الشخصية في النص – وهي الروائية نفسها – في بلد(العراق) وأولادها(ابنها وابنتها) في بلدٍ آخر(المغرب) وقد ثار عندها هذا الشـعور بالغُربة من خلال إحسـاسـها بالمرأة المفارقة لابنتها المهاجرة إلى بلدٍ آخر لغرض الدراسـة والاسـتقرار هناك. وذلك البُعد والغُربة دلالة إن الأبناء تركوا الوطن(العراق) بسـبب عدم الحصـول على الإنصـاف وفرصـة الحياة العملية والاجتماعية التي يصـبون إليها، تاركين خلفهم أُمهاتٍ يتأملن جمع الشـمل في يومٍ ما والخلاص من شعور الغُربة داخل حدود الوطن(العراق).

وفي رواية (وأدتُكَ قلبي) جاء في احد نصوصها: "**سوف أنسى باسمة سعيد وبلقيس، وأحيا لحظات هانئة مع صديقتي نهلة الأرملة التي غادرها زوجها وهي في عز الشباب، وهي قادرة على أن تجعلني أتمتع بما لا يقدر عليه فتيات بلدي الآنسات، البلد يُضيق على النساء ويكتم أنفاسهن**"[19].

في هذا النص يظهر الحوار الداخلي من خلال مناجاة البطل لنفسه وحديثه معها بقرار يخص حياته المستقبلية بين هذهِ وتلك من النساء، مقرراً اللجوء إلى المكان الذي يجد فيه راحته النفسية والجسدية وهو بيت الحبيبة (نهلة) التي لا تطالبه بأي شيء ولا تنتظر منه مقابل. ولا تعير اهتماماً لكلام الناس أو نظرة المجتمع كما هُنَّ النساء في نفس المجتمع الذي يُقيد الحُرية وينظر للمرأة المُتحررة نظرة دونية.. فكان المكان المألوف في النص هو بيت الحبيبة(نهلة) الجاذب للبطل والمانح لهُ ما يُسعده أما المكان المقابل لبيت (نهلة) فكان ضمن ما ورد في تعبير (بلدي) والظاهر من خلال سلسلة الكلام(... **البلد يضيق على النساء ويكتم أنفاسهن**) أنه بيئة تحنط طموح وحركات المرأة.

وفي نص آخر من نفس الرواية(وأدتُكَ قلبي) يستمر ظهور هذا النوع من الحوار الداخلي بين الشخصية ونفسها وهو حوار صامت يدور في الذهن.. فجاء في النص:"**الخطأ الجسيم الذي ارتكبته إنني تقدمت طالباً يد بلقيس، وقد رُفض طلبي من قبل أُسرتهما، وأنا فرحُ الآن، لأن طلبي لم يستجيب لهُ، كانت الفتاة الجميلة تعشقني، وكان خروجها لملاقاتي يثير المتاعب لها، بلادنا تُحرّم الحُب العلني حتى بين الوالدين**"[20].

فقد استخدم السارد(بطل الرواية أحمد) أحد أنواع الحوار الداخلي في هذا النص وهو(الفلاش باك) حيث يسترجع مع نفسه ما حدث واصفاً أثره عليه من الداخل.. وهو يعترف إنه أخطأ بإقدامه على خطوبة زميلته بلقيس التي قام أهلها برفضه رغم إنه أتخذ الطريق الصحيح للارتباط بها وهو طلبها من أهلها لكن هنا يأتي دور المكان(بلادنا) في تبرير سبب رفض الأهل لذلك الارتباط وهو وجود علاقة حب مسبقة بين (أحمد وبلقيس) فبحكم البيئة وعاداتها رفض الأهل ذلك الزواج حتى لا يُقال إن ابنتهم كان تعرف ذلك الرجل قبل الزواج ولم يكن زواج وفق رغبة الأهل وعاداتهم... فكان من عادات(بلادنا) وسم تلك العلاقة بالعار على الأهل لقبولهم إعطاء ابنتهم لمن كان يخرج معها أو يكلمها قبل الزواج ودون علمهم. فهو مجتمع (مكان) ناقد.

وفي نص آخر من وراية(تأشيرة السعادة).. تناجي الشخصية نفسها عن طريق الحوار الداخلي وهي تصف حالة القلق وعدم الراحة الداخلية التي تشعر بها، وذلك واضح من النص: **(لا استطيع الانتظار طويلاً، عدم معرفتي بما يجري في أرض الوطن يقلقني كثيراً، يسلب راحتي ويقضي على سلامتي وأمني، يهدد اطمئناني، لا أعرف ماذا حلّ هناك)**[21]،فيظهر أثر المكان على نفس البطل الذي يجهل ما يحدث لزوجته(سُعدى) داخل أرض الوطن الملتهب والغير

مستقر أمنياً، ففي تعبيره(**يسلب راحتي، يقضي على سلامتي**) دلالة وقع الأحداث السلبية المروعة التي يمر بها الوطن(العراق) على البطل المقيم خارج ذلك البلد لكن وجود زوجته داخل حدود الوطن شكّل عنده هاجس الخوف مما يمكن أن يكون حل بها... وعبّر البطل عن كل ذلك من خلال حواره مع نفسه مستفهماً غير مهتدي إلى ما يُريح قلبه وعقله. وكل ذلك كان متأتياً من أثر المكان وأحداثه على نفس السارد(البطل) والذي كان أثراً سلبياً حيث مثلت(أرض الوطن) المكان الغير آمن كما تشعر الشخصية.

إذاً.. الحوار الداخلي أحد وسائل التعبير عن أثر المكان على النفس البشرية – من خلال نوعه وطبيعته وما عاشته الشخصية فيه، وذلك عن طريق دوران الأفكار داخل العقل حول ذلك المكان بالاستفهام أو المناجاة أو استعادة ذكريات مرت فيه(فلاش باك) وربما تحليلها مع الذات.

الحوار الخارجي(الديالوج)

يدور الحوار الخارجي بين شخصين أو أكثر أحياناً، في إطار الرؤية أو المشهد بطريقة مباشرة، ويمكن تسميته(بالحوار التناوبي)، حيث يتناوب فيه شخصان أو أكثر بطريقة مباشرة كذلك، حيث تكون السمة الظاهرة عليه هي التناوب، ويعد هذا النوع من الحوار عاملاً أساسياً في دفع العناصر السردية إلى الأمام، فيرتبط وجوده بالبناء الداخلي للعمل الروائي معطياً لهُ تماسكاً ومرونة واستمرارية[22].

وتُعد لغة الحوار مهمة جداً، لأنها تساعد على استمراريته وفهمه وزيادة الإدراك لطريقة المحاورة والرد، كما ويُعد الحوار الخارجي(الديالوج): "**نقطة انطلاق الشخصيات العامة للتفاهم فيما بينها، حيث يكون الراوي هو المُدبر الفعلي لآليات التشكيل السردي في النص**"[23].

وقد تتوافر العناصر الدرامية في الحوار الخارجي فيكون حوار درامي فيه صراع وأحداث تصاعدية وشخصيات مختلفة الطِباع، يدور بينها الجدال الذي يكون أقرب إلى المسرح منه إلى القصة، لأن المسرح تكون فيه الحركة والحوار المباشر أوضح كون الشخصيات مرئية مباشرة وهي تتحرك وتنفعل..[24].

وفي روايات(صبيحة شُبر) يظهر الحوار الخارجي كأحد آليات تشكيل المكان في نصوص عديدة مُعبراً عن طبيعة المكان والشخصيات المتواجدة فيه.. كما إن روايات(صبيحة شُبر) غنية جداً بالحوارات الخارجية(الديالوج) التي تتبادلها شخصيات رواياتها، قاصدة منها أخذ القارئ إلى عام أو مكان تواجد الشخصيات المتحاورة وكأنه يسمع ويُشاهد ويستنتج.

وفي نص سردي آخر يظهر الحوار الخارجي موضحاً أثره في تشكيل المكان.

((-كريم وصائب لا أدري ماذا حلّ بهما وأخشى أن أسأل عنهما لئلا يسبب سؤاليأذىَ لهما.

لا تسألي عن الغائبين مجبورين، اسمعي نصيحتي ونفذيها وأنتِ لاتعرفين ماذا يجري، كلنا نعيش داخل سجن كبير.

- نعم، صدقتَ يا أخي))[25].

قدّم الحوار الخارجي في هذا النص، المكان المجازي(السجن) الوارد في النص وأثره على الحالة النفسية التي كان يُعاني منها أبطال الرواية(شخصياتها) والتي جعلت المتحدث في النص يصف الوطن الرحب(العراق) بالسجن(كُلنا نعيش في سجن كبير)، فهو ليس السجن الحقيقي المعروف، إنما السجن الذي يُقيد حركة الإنسان وحياته وحقوقه، وسجن نفسي يحبس الأرواح والرغبات(تعبير مجازي)، فكان الحوار الخارجي أحد أهم الدعائم والأُسس في تشكيل الرؤية المكانية كونها المادة الأساسية للبنية الحوارية في النص السردي الوارد، حيث كانت البنية الحوارية أداة فاعلة في نسيج العلاقات مع البُنى الأخرى، وهذا أحد أوجد استخدام اللغة(اللغة الحوارية) المهمة في فهم وتأويل النص عند المتلقي، وقد حاول النص السردي عن طريق الحوار الخارجي بين شخصيات الرواية المقربة تسليط الضوء على المكان الموصوف ومحاولة التغيير للتخلص من عوامل ومسببات عدائية هذا المكان ووقعه النفسي السلبي على الإنسان.

وقد ورد الحوار الخارجي في النص السردي:

((-لا تتحامل على باسمة

-أنا لا أتحامل ! إنما تصرفها يثير استغرابي!

- أخبرتني سابقاً إن باسمة من أصول ريفية.

- نعم، لقد نشأتْ في الريف، وعاشتْ هناك في طفولتها، لكنها دخلت الابتدائية في بغداد.

-لقد علمتنا كتب علم النفس التي أكثرنا من قراءتها إن صفات الشخصية الأولى والمهمة تتكون في الطفولة))[26].

سلّط الحوار الخارجي في النص السردي الوارد الضوء على مسألة مهمة جداً ألا وهي البيئة الأولى (مكان النشأة الأولى للإنسان) على رسم ملامح شخصيته وطبيعته، وفي هذا النص نجد أثر المكان الذي ولدت فيه بطلة الرواية(باسمة سعيد) وعاشت فيه طفولتها ومراهقتها.. فهي فتاة ولدت في(الريف).. ومن المعروف ما يحكمه ذلك المكان على النساء من أحكام وما يفرضه وفق العادات والتقاليد العشائرية، وقد تُشكّل تلك الضوابط عبئاً على نفسية(باسمة سعيد) المرأة المثقفة التي تنادي بحرية المرأة وحق مساواتها مع الرجل هي فتاة من المجتمع القاسي(الريفي) ومن داخل نفسها تتغلغل فيها طبائع بيئتها الأولى(مكان النشأة: الريف)، رغم انتقالها لإكمال

دراستها الجامعية إلى(بغداد) حيث المكان مختلف كلياً عن طبيعة وتكوين وعادات مكان نشأتها الأولى(الريف) ورغم ما كان يبدو عليها من شخصية ظاهرية قوية وجذابة تدعو إلى السعي لنيل المساواة وتحلي المرأة بالقوة وفرض قناعاتها الشخصية التي تؤمن بها.. فيما أثار استغراب البطل الحبيب(أحمد منصور) الرجل المتحرر فكرياً واجتماعياً وفق بيئته البغدادية(مكان نشأته) وكثرة سفراته واختلاطه.. إن(باسمة سعيد) تحمل داخلها صفات لا تلائم مكانتها وقناعاتها وكلامها في ندواتها التي تقيمها.. هو(الحياء الزائد) عن حده لدرجة النفور.. فهي بنظرة مثقفة تحمل داخل نفسها الفتاة الأمية الريفية المسيرة وفق العادات، وتلك النشأة الأولى (في الريف: المكان الذي ترتب فيه) جعلتها تفقد طبعها بعدم بوحها بقناعتها إن الرجل هو من يعترف ويبادر وإنه لا حُب إلاّ بعد الزواج.. كما شهدت في بيئتها المتغلغلة داخلها لا إرادياً.

وكان أثر المكان الأول والثاني(الريف) و(بغداد) أن جعل (باسمة سعيد) تبدو وكأنها شخصيتين: الشخصية الأولى هي الفتاة التي نشأت في مكان محافظ ينتقد ويحاسب المرأة على السكتات والحركات وهو(الريف)، أما الشخصية الثانية فهي الشخصية التي حاولت تعويض الكبت الذي عانته كأمرأة محكومة بالعادات، بعد أن انتقلت إلى بيئة متحررة مختلطة لا تُعقب على كل شاردة وواردة وتعطي مساحة للمرأة بأن تكون وتُعبر وتُنتج، وهي(بغداد) المكان الذي أكملت فيه دراستها الجامعية واستقرتْ وبدأتْ حياتها المهنية.

كل ذلك يعود إلى إن المكان يطبع ساكنيه بطابعه سواء أكان ذلك بالوعي أو اللاوعي.

أما في النّص:"-**رغم إنه حرموني من أسرتي ومن الناس الذين أحبهم، فقد كسبت هنا صديقات كثيرات اعتز بصداقتهن ما حييت.**

- قد يتحول المعتقل إلى مدرسة يتعلم فيها المرء ما عجز عن تعلمه أثناء وجوده حراً، فالشغل أحياناً وعدم التفرغ تحرم الإنسان من اكتساب بعض العلوم"[27].

يظهر الحوار الخارجي للمرأة وهي تقدّم المكان الذي يُعبر عن حالة ارتباطه بالنفس، الشخصيات المتواجدة مع بطلة الرواية تحول المكان من المعادي(المعتقل) إلى مكان أليف تقيم فيه البطلة علاقة ود وتفاهم وتتعايش مع من معها من الشخصيات حتى تصبح علاقة وثيقة.

مثّل الحوار الخارجي هُنا إضاءة للنص للكشف عن طبيعة المكان الذي آل إليه بعد أن كان كمسمى(معتقل) يثير الرهبة والخوف، حيث يظهر من خلال القول(قد يتحول المعتقل إلى مدرسة)، إن دروس الحياة لا تعطى كلها بالمدارس مثلها مثل المناهج العلمية.. فممكن أن يأخذ أي مكان آخر على عاتقة منح دروس اجتماعية أو نفسية أو أخلاقية للإنسان وزيادة وعيه، وهي علاقة التأثر والتأثير بين الأمكنة وساكنيها، فمن خلال تنوع الأمكنة تتنوع التجارب الحياتية.

ويُعزز الحوار الخارجي(الديالوج) أثر طبيعة المكان على الإنسان وأحكامه بعادات وتقاليد معينة، فجاء في النص:"**أنا لم يستشرني أحدهم حين ألبستموني العباءة ! لماذا تحاول إقناعها ؟**

– **الإنسان ابن البيئة. بسمة أرتدتْ العباءة أيضاً، ونحن الآن في بغداد.**

– **وما الفرق، كلها مدن عراقية.**"[28].

جاء الحوار في هذا النص بصورة مباشرة خالية من الإشارات والإيماءات، حينما جاء تعبير(أنا لم يستشرني أحد...)، إذ كانت الرواية في هذا الحوار الخارجي ثنائية تتعلق بنوع المكان أولاً وبشخصياته ثانياً، لتحقق لنا دلالة إن الحوار بين القدرة على النقاش وإبداء الرأي والعتاب أو المحاججة، فضلاً عن تحديد الموقف حيث يبدأ الحوار الخارجي في النص بالتحدث – عن طريق السارد (الراوي المشارك بالأحداث) وهي في الرواية (شقيقة والد بسمة) – عن أزمة المرأة العراقية في المجتمع العراقي الذكوري الذي يحدد سلوكها وتعاملها وفق الرقعة الجغرافية التي تسكنها – المكان وما يحكمه من عادات وتقاليد إلزامية، حتى لو كانت بدون قناعة، ويحمل ما يمنعها من الاستمتاع ببعض حريتها في الحياة وذلك بسبب وجوب إلزامها بعادات القبيلة(العشيرة) والمكان بمختلف أنواعه، فحين نجد تعبير (الإنسان ابن البيئة) فسيكون الكلام الذي تم عرضه هو الدليل على ذلك ولهذا كان ارتداء(بسمة) و(عمتها) للعباءة انصياعاً لعادات وضوابط مكان معيشتهم(النجف)، أما ما لحقه من تعبير (ونحن الآن في بغداد)، أي إنه من الممكن أن يتغير شيء من نظام حياة عائلة(بسمة) وفق مكان معيشتهم الجديد في (بغداد)، والمعروفة بعدم تضييق الخناق على المرأة وإنها مكان لا تحكمه القبلية، فكان ذلك مبرراً لقبول(والد بسمة) أن تخلع ابنته الحجاب الذي فرض عليها وفق المتعارف عليه من العادات في ذلك المكان(النجف) رغم صغر سنها، وهذا الحوار الخارجي يكفي لأن يكون معبراً عن المكان داخلياً وخارجياً.

ويظهر الحوار الخارجي في معالجة الواقع الصعب على مختلف أشكاله، وذلك في النص السردي:"**أبوكِ يُعاني من عدد من الأمراض، فيه مرض القلب وثقب الأُذين والبطين، وعُسر التنفس، وشعور بالبرد لا يمكن البرء منه إلاّ بالعودة إلى ديار الأحبة والأصدقاء**

– **وما العمل يا دكتور ؟**

– **عليكم إشعاره بالحب !**

– **وكيف نعيد لهُ الأحبة الذين فضوا نحبهم ؟**

– **كان الله بعونكم، أنتم أهل العراق معرضون للظلم دوماً !** "[29].

يقوم هذا النص على توضيح الشعور الوطني عن طريق الحوار وخصوصاً شعور الغربة والاشتياق للوطن الجريح(العراق)، فيعتمد الحوار على المزج بين الخوف والحزن بسبب البُعد عن

المكان المُحبب للنفس رغم معاناة الفقدان والألم والاضطهاد داخله(ديار الأحبة والأصدقاء)، فقد أفصح الشعور بالخوف والذي كان يتملك قلب(والد سامية) – الرجل الكبير الذي أخذ أولاده إلى حيث لا يعلم أحد – عن طبيعة المكان الذي تركه وكله حنين للعودة إليه، وربما البُعد النفسي عند الروائية(صبيحة شُبر) يُعاني من حضور المعاناة والبُعد عن مكانها المُحبب(الوطن)، فحاولت من خلال هذه الرؤية التي تبلورت عندها بحكم بُعدها عن البلد لسنوات معالجة وضع نفسي قاتم ومعتم، لهذا ركزت على الغُربة وضرورة معالجتها، وقد تكون الغُربة هنا نفسية أكثر مما هي مكانية(جغرافية) بمعنى: إن النفس ترغب بالخلاص من الواقع الذي فُرِضَ عليها وجعلها تترك مكانها الذي تعشق(البلاد التي تضم الأحبة) طالبة التغيير لصنع حياة أجمل وأكثر أمان ودفء، وبهذا جعل الحوار الخارجي المكان متشظياً بين الحقيقة والمجاز من جهة ارتباطه بالغربة المكانية النفسية والحقيقية، وكان دلالة ما وصف به المكان في النص وما تركه من آثار في نفس الشخصيات هو تعبير الطبيب(**أنتم أهل العراق معرضون للظلم**)، وكان هذا الرحيل الإجباري واضحاً من عتبة عنوان الرواية(**راحلون رغماً عن أنوفهم**).

وفي نص سردي آخر يجري حوار خارجي طويل بين شخوص الرواية.. لبيان ما يلعبه نوع المكان من دور مهم ومؤثر على الإنسان .. خصوصاً إن كان الإنسان فاقد لما هو حق لهُ من أمان ورفاهية.. فجاء في الحوار:

"– **أُعاني من عدة مشاكل.**

– **وهل هروبك إلى بلاد أُخرى سيُخفف عنك المشاكل ؟**

– **لا أدري.... إن البلاد التي سافرت إليها ولجأت، تُسمى(بلاد السّعادة)**

– **ولك شهران وأنت فيها، هل وجدتَ السعادة ؟**

– **لا أدري، جزيرة السعادة فيها الحياة آمنة، يحرص النّاس على نظافة المُدن والشوارع منظمة، لا أحد يرتفع صوته على الآخر.**

– **وهل هذهِ أسباب كافية للهروب من البلاد ؟**

– **الأمن سبب كافٍ، كذلك النظام في المُدن، بالإضافة للأسباب التي ذكرتها، فأنا مريض أحتاج إلى رعاية صحية، لا تتوافر في بلادنا.**

– **وهل يمكن أن تجد العلاج المجاني في(جزيرة السعادة)، كما أعتدنا على توفره في بعض المستشفيات الحكومية ؟**

– **لا أدري، العلاج المجاني يتوفر لأهل البلاد فقط، اما الأجنبي فيجب أن يدفع النقود لِقاء ما يصفون لهُ من علاج...**"[30].

تتجلى أهمية المكان بالنسبة لأحد أبطال الرواية(سمير) من خلال فاعلية الحوار الخارجي الذي عرض كلام الشخصيات بحرفية – فكان تبادل الحوار بين شخصيات هذا النص

على هيئة المحادثة التي توضـــح وجهة نظر المتحاورين حول المكان المذكور في النص(بلاد الســـعادة) والذي يعتبر مكان غير واقعي في حقيقة الأمر، إنما هو مكان ممكن أن تتوافر فيه مل ما تتمناه النفس الإنسانية للعيش بسلام مقارنة بالمكان الواقعي المذكور(البلاد: العراق) الذي بات مكاناً معادياً لا تتمنى الشخصية(سمير) سوى تركه بلا رجعة معتقداً إنه لن يرَ السعادة في تلك البلاد(العراق) مهما حصـل وطغى شـعوره بالعدائية والخوف اتجاه بلده حتى وصـل به الحد إلى أن يوصـي بعدم دفنه في بلاده(العراق) مسـتقبلاً عندما يموت...فقد كان تفكيره تجاه المكان تشـاؤمياً كانتْ لغة الحوار واضـحة في النص من حيث بيان فاعلية المكان على شـخصـية الرواية(سمير)، فكشفت عن صورة المكان المرسومة في ذهن البطل(سمير) لبلده(العراق): وهي صورة معادية خالية من الحنين كما عرفنا عند غيره من الراحلين عن أوطانهم، رغم وجود صفات ومبررات في بلده(العراق) لن يشعر بقيمتها حتى يفقدها وهو خارج ذلك المكان(العراق) كان أهمها ما وضـحه الطرف المحاور الآخر في النص وهو الحصـول على العلاجات مجاناً ونيل الجنسية الخاصـــة به دون عناء ولا مِنة وهو في بلده وكانت المقارنة بين المكانين الروائيين:(العراق) و(بلاد السـعادة) من أوجه عدة أهمها: الحصـول على الأمن في بلاد السـعادة والسـلام الروحي والذي يعتقد(سـمير) بحصـوله عليه خارج بلاده(العراق) إضـافة إلى تركيزه على النظافة والنظام والهدوء التي خلا منها بلده(العراق) وامتازتْ بها(بلاد السعادة)..

فكانتْ العلاقة بين المكانين(العراق – بلاد السعادة) وبطل الرواية، علاقة يشوبها نوع من غياب الاطمئنان تجاه المكان الأول(بلده/ العراق)، ونوع من التطلع للأفضـــل تجاه المكان الثاني(بلاد السـعادة)، وذلك اسـتناداً إلى وصـف البطل(سـمير) لحياته داخل بلده(أُعاني من المشـاكل)، حيث ترك الراوي هنا للشـخصـية فرصـة للحديث عن مشـاعرها ووجهة نظرها تجاه بلدها(العراق) وذلك من أجل إلهام المُتلقي بحقيقة الحوار الجاري بين المتحاورين، حيث خلى الحوار من التعليقات الجانبية التي توضح ما يتم الحديث عنه. من ثم استرسال البطل(سمير) في الكلام عن المكان الأليف والذي يتمنى أن يقضـي فيه بقية عمره، مسـتخدماً ما سـمعه عن تلك البلاد(بلاد السعادة) من إيجابية وأمان من الألسن الواصفة.

ويكشـــف الحوار التالي بين أحد أبطال الرواية وموظف المطار عن دلالات اجتماعية ونفسية وسياسية تمثلتْ بما وصف به المكان الوارد في النص السردي:

"– **أين حقيبتي، لم أعثر عليها ؟**

– **لماذا تأخرت في الوصـــول ؟ ركاب طائرتكم القادمة من البلاد المســتعرة، اســتلموا حقائبهم وغادروا.**

– **ماذا يمكنني أن أفعل الآن ؟**

– **أذهب إلى رئاسة المطار.**"[31].

نجد من خلال الحوار الخارجي في هذا النص وصـــف عميق للمكان المذكور، أي البلد الذي قَدِمَ منه المسافر إنه بلد مستعر بقوله(أهل البلاد المُستعرة)... وهي صفة عمومية تدل على عدم الأُلفة والأمان المكاني تحمل داخلها العديد من الدلالات.. فكلمة(مُســتعر) تعني أمور كثيرة فقد تعني مكان مســتعر طائفياً، أو مكان مســتعر عِرقياً، أو دينياً واجتماعياً أو اقتصــادياً...، وغيرها من أنواع عدم الاستقرار والاحتراق الداخلي والتآكل الذي أصاب هذا البلد فشمل طوائفها وسكانها وشغلهم بالصراع الداخلي فيما بينهم.. وكان الأساس الذي يسعى لاستمرار ذلك الاشتعال هو زراعة الفتنة من قِبل المُســتعمر(قوى خارجية فاعلة) بين صــفوف الشــعوب الفقيرة من أجل نهب خيراتها دون مقاومة بجعل المكان ساحة صراع ذاتي وداخلي لا يؤثر على نيلها مبتغاها..

وجاء الحوار الخارجي بصيغة السؤال والجواب بين الشخصيتين المتحاورتين في النص الآتي:

"- **هل ستنالين التقاعد وبعده تسافرين ؟**

- **إلى أين أُسافر ؟**

- **خارج العراق.**

- **لن أُسافر، العراق وطني ولن أغادره إلى أي مكان آخر**"[32].

إن علاقة المكان بالحوار هي علاقة بيّنة، ولها أشكال مختلفة بحسب المكان وطبيعته ولغة الحوار المستخدمة، فقد يتم التصريح بالمكان الذي يدور الحوار حوله بشكل مباشر، كما هو واضح في هذا النص السردي، حيث تم ذكر المكان(العراق)، بشكل صريح ومباشر فكان الطرف الأول من الحوار(الموظف في دائرة التقاعد) يحاور الطرف الآخر -(شخصية الرواية: الروائية نفسها لأن الرواية تذكر تفاصيل عن حياتها وسيرتها)- بطريقة استفهامية عن بقاءها أم سفرها من(العراق).. كان رد الطرف المحاور الثاني(الروائية أو بطلة الرواية)ردّاً تظهر فيها الألفة المكانية والحب والاعتزاز بذلك المكان(العراق) معززة الروح الوطنية التي تجعلها لا تفضــل أي مكان آخر على بلدها(العراق)، فقد أوضح الحوار الخارجي المباشر بين الطرفين دون مقاطعة أو تحليل، الأثر الإيجابي على روح الشخصية(الروائية أو البطلة) الذي يظهر تجاه المكان(العراق- وطني).

فالحوار إذاً.. بأنواعه هو عنصر إضاءة للنص السردي يقوم بالكشف عن طبيعة تكوين المكان والشخصيات وتناقضها. وهو أحد أساليب الكلام الهادف للتوضيح والإقناع، فالحوار فعّال يتيح تقديم معرفة عن الشخصية وتبين ما تريد من خلاله[33].

ويتنوع الحوار بين الحوار الداخلي(المونولوج) المتمثل بحوار الشخصية مع نفسها لغرض الاســتفســار أو الاســتفهام أو التأنيب أو المناجاة أو المواســاة وما إلى ذلك، والحوار

الخارجي(الديالوج) الذي يكون بين طرفين أو أكثر من أجل توضيح مسألة ما أو الخروج بنتيجة منها.

وفي أي عمل أدبي روائي يجب أن يكون الحوار متفاعلاً مع بقية العناصر المكونة للخطاب مندمجاً معها، ويكون سلساً متناسباً مع طبيعة الشخصية المحاورة، سواء كانت متحاورة مع نفسها(مونولوج) بصوتٍ واحد، أو بحوار يدور بين شخصين أو أكثر(ديالوج) بصوتين أو أكثر وفكرتين وصولاً إلى الفهم والإقناع.

---

(1) يُنظر: البناء الفني في القصة القصيرة في العراق من 1990م–2000م، أ.د. حسنين غازي لطيف، ص(181).

(2) جماليات التشكيل الروائي – دراسة في ملحمة مدارات الشرق، لنبيل سليمان، محمد صابر عبيد و د. سوسن البياتي، ص(247).

(3) طرائق تحليل القصة، الصادق قسومة، دار الجنوب، تونس، ج1، ص(162).

(4) يُنظر: البناء الفني في القصة القصيرة في العراق من 1990م–2000م، أ.د. حسنين غازي لطيف، ص(179).

(5) المصطلح السردي، جيرالد برنس، ص(59).

(6) الحوار قراءة في المصطلح والمفهوم، حسن بوسفينة، مجلة كلية الآداب للعلوم الإنسانية، ع:37، ص(44).

(7) جماليات التشكيل الروائي، دراسة في ملحمة(مدارات الشرق)، لنبيل سليمان، د. محمد صابر عبيد و د. سوسن البياتي، ص(248).

(8) يُنظر: بناء الرواية، سيزا قاسم، ص(104).

(9) يُنظر: البناء الفني في القصة القصيرة في العراق من 1990م–2000م، حسنين غازي لطيف، ص(180).

(10) يُنظر: المصدر نفسه، ص(179).

(11) طرائق تحليل القصة، لصادق قسومة، ج1، ص(162).

(12) يُنظر: الحوار في رواية الإعصار والمئذنة لعماد الدين خليل – دراسة تحليلية، بسّام خلف سليمان، مجلة كلية العلوم الإسلامية، مج7، ع13 لعام 2013م، ص(13).

(13) الحوار في القصة المسرحية والإذاعة والتلفزيون، طه عبد الفتاح مقلد، مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، 1975م، ص(19).

(14) العرس، ص(62).

(15) رواية(نأيكَ وأوجاعي)، ص(147).

(16) أرواح ضامئة للحُب، ص(37).

(17) أرواح مائة للحُبِ، ص(91).

(18) هموم تتناسل وبدائل، ص(34).

(19) وأدتُكَ قلبي، ص15.

(20) وأدتُكَ قلبي، ص67.

(21) تأشيرة السعادة، ص70.

(22) يُنظر: الحوار القصصي تقنياته وعلاقاته السردية، فاتح عبد السلام، الدار العربية للعلوم ماشرون، د.ط، 2020م، ص(22).

(23) جماليات التشكيل الروائي، دراسة في ملحمة(مدارات الشرق) لنبيل سليمان، د. محمد صابر عبيد و د. سوسن البياتي، ص(248).

(24) يُنظر: الحوار – قراءة في المصطلح والمفهوم، حسن بو سنينة، ص(51).

(25) رواية نأيك وأوجاعي، ص(136–137).

(26) رواية(وأدتُكَ قلبي)، ص(127).

(27) نأيك وأوجاعي، ص(84).

(28) أرواح ضامئة للحب، ص(133).

(29) راحلون رغماً عن أنوفهم، ص(115–116).

(30) تأشيرة السعادة، ص(191–192)

(31) تأشيرة السعادة، (ص18).

(32) هموم تتناسل وبدائل، ص(109).

(33) يُنظر: عالم الرواية، رولان بونوفو أونيليه، تر: نهاد التكرلي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1991م، ص(168).